

بنية الاستشراق الفرنسيّ والمقاومة الجزائرية نموذج أوجين دوماس

أ.د. وحيد بن بوعزيز
جامعة الجزائر 2 / الجزائر.

تعرف الآن الكثير من المناهج النقدية الأدبية المعاصرة عودة قوية للذاتي التفاعلي ونقدا حصيفا للموضوعي؛ فبعدها سادت النزعة الموضوعية **L'objectivisme** في تخوم النقد الغربي متجسدة في النقد العلمي الوضعاني والسوسيولوجي والبنوي، راحت الآن تختبر أسسها في مخابر مابعدحداثية، تحتفي بالظواهرية والذاتية التفاعلية.

يعتبر النقد الأدبي الكولونيالي ومابعد الكولونيالي سليل الفكر ما بعد الحداثي، ويتجلى ذلك في تفويض الخطاب الغربي المتمركز حول ذاته ونفي الثنائيات الفكرية الفجة السائدة في الخطابات المهيمنة، والاهتمام البالغ بالسرد المطمورة والمهمشة. لهذا يتمرجع هذا الخطاب مع عدة صروح فكرية: حفريات فوكو وتفكيكية ديريدا والنقد الماركسي الجديد مع تيري إيجيلتون.

لا يمكن الطعن في آليات هذا الخطاب النقدي الأدبي الجديد برؤيته خطابا يحمل بين طياته مفاعلا انتقاميا، ساهمت في تشكله ترسبات تاريخية وافرارات جيوبولتيكية تعود إلى القرن التاسع عشر. فهذا الخطاب كما بين إدوارد سعيد في كتابه *الثقافة والإمبريالية* وهومي بابا في كتاب *موقع الثقافة* لا بد أن يكون بعيدا كل البعد عن النزعة الضدية، التي تساهم بدورها في إعادة الأزمة الإنسانية بتشجيع ثقافة العنصرية والحقد.

فعلا، لم يخرج إدوارد سعيد وهومي بابا عن التعاليم التي أرسى أسسها فرانس فانون حينما قال بأن المستعمر (بالفتح) يحقق ذاته حينما يصنع مستقبله خارج مرجعية المعية والضدية مع المستعمر (بالكسر)، ولكن لابد من تجنب أية سطحية قد تختزل هذه العملية الانعناقية في مجرد تعال طوباوي. لهذا لابد من تعميق النظر في العلاقات الثقافية بين الدول المستعمرة والحوضر، بين الأفاصي والامبراطورية وبين الأصلائي والكولون كي يتحدد تحقيق جديد ومرويات معاكسة تسمح للصوت الذي كان دائما موضوع دراسة أن يُوضع بدوره مُموضِعُه.

يكمن خطر هذه الدراسات الأدبية النقدية المعاصرة في مقارنة العلاقات المعقدة للتواريخ الكولونيالية دراسة متعالية بعيدة عن الروابط المادية، فإبعاد فكرة الاستغلال الاستعماري كعنصر جوهري في تحليل السياق الكولونيالي بحجة البنية والمحايدة والمعطيات المعاصرة مثل المنافي والهجنة والمستقبل الإنساني المشترك سيجعل هذه المقاربات تفتقر إلى عنصر يجذبها إلى الواقعية التي تفرض منطق التعرية وأخلاق الاعتراف.

كما يكمن خطر هذه الدراسات في بداية بروز نزعة تفكيكية سبقت أوانها، فالخطاب لم تتبين بعد توزيعاته المعرفية وإمكانياته الاستكشافية **Les possibilités heuristiques** حتى راح بعض الدارسين المهتمين بالدراسات الكولونيالية وما بعد الكولونيالية إلى وضع العربية أمام الحصان! جاء في كتاب أنيا لومبا في نظرية الاستعمار وما بعد الاستعمار الأدبية مايلي: "وكما ذكرنا سابقا فإن الاستعمار في الثلاثينات من القرن العشرين قد مارس حكمه لأكثر من 84.6 بالمائة من سطح يابسة الكرة الأرضية. هذه الحقيقة وحدها تذكرنا بأنه يستحيل على الاستعمار الأوروبي أن يكون عملية تنكشف عن وحدة متراصة وتناغم كلي. ومنذ سنواته الأولى نشر الاستعمار استراتيجيات وطرق

مختلفة للسيطرة والتمثيل. وتبعاً لذلك فإن أنواع الخطابات الأوروبية حول الآخر متنوعة. لكن بما أنها انتجت علاقات قابلة للمقارنة (وأحياناً متشابهة بصورة عجيبة) من الجور والهيمنة في كل أنحاء العالم، يفوتنا أحياناً بأن الصور والطرق الاستعمارية تنوعت بصورة كبيرة بين زمان ومكان. فمعظم المعلقين المعاصرين يستمرون بالتعميم حول الاستعمار من خلال معلوماتهم المحددة حوله في مكان أو زمان معين... إذن فترات الاستعمار متنوعة ومتعددة حتى وإن كانت تشترك فيما يبدو في بعض الخصائص.⁽¹⁾

لا ينكر الباحث المتمعن أن طرق وسبل الاستعمار لا بد أن تفكر بصيغة الجمع، فتعميم مصطلح نقدي يستمد من نقد الاستعمار الانجليزي على تواريخ متباينة لاستعمارات أخرى مثل الاستعمار الفرنسي يعد ضرباً من الإسقاط المعرفي الذي لم يتوخ الحذر من مقولة الزمنى في تحديد الموضوعى؛ ولعل أحسن مثال على ذلك استعمال بعض النقاد العرب لمصطلح الامبراطورية الذي أصبح سائداً في النقد الانغلو ساكسونى لتطبيقه على التاريخ الاستعماري الفرنسي. فمقارنة بسيطة تبين بأن الجمهورية نالت حصة الأسد في تاريخ المستعمرات الفرنسية، زيادة على ذلك كان يصف لافاييت مملكة لوي فيليب بالجمهورية 1830 م إلى 1848 م كما ادعى من بعد نابوليون الثالث أن ثورة 1848م ذات أسس جمهورية على الرغم من تحويلها إلى امبراطورية أثناء حكمه.

يتبين من هذا أن تحديد الترسانة الاصطلاحية في هذا النقد لا بد أن ينطلق من مسح تاريخي وجغرافي، لكيلا تختلط المقاربات، ولكن على الرغم من كل هذا فإن البحث الذؤوب عن بيئة عميقة قارة مشتركة بين كل المشاريع الاستعمارية، خاصة إذا ربطناها بالاقتصاد السياسي سيجعلنا نحدد بطريقة واضحة الأسس النظرية لمقاربة معرفية تتوخى الشمولي في النسبي والمؤتلف في المختلف.

إن التفكير كإجراء يصبح ذا نجاعة معرفية حينما تتبين البنية وتصبح منغلقة محايثة ونافية للغيرية والانفتاح، فيدعو هذا التأزم إلى البحث عن مسكوتاته وتقويض مكبوتاته، لهذا قبل التفكير في تشردم معطيات الظاهرة الكولونيلية واختلافاتها لابد من التفكير في الكيفية التي تتم عملية التحكم فيها.

بعد هذا المدخل الذي يشكل موقفا معرفيا، ستتم دراسة نص لم يتطرق له في الكثير من الدراسات الكولونيلية على الرغم من أنه يشكل وثيقة هامة في التعرف على تقنية سرديّة هامة تحتاج إلى ربطها بالسياق الاستعماري.

La conquete de la Kabylie عنوان النص هو غزو منطقة القبائل

للجنرال أوجين دوماس. ولد الجنرال دوماس في المناطق السويسرية عام 1803م بدوليمون وتوفي بكوميلان سنة 1871م، بعد تقلده أوسمة عديدة في الجيش الفرنسي بشمال إفريقيا واصل حياته سياسيا. تعلم العربية لهذا اسندت له مهمة قنصل عند الأمير عبد القادر ثم أصبح المسؤول العام الأول عن العلاقات الجزائرية. اشتغل مع الماريشال بيجو والدوق أومال ابن الملك لوي فيليب والجنرال لامورسيير بالغرب الجزائري. اختص في منطقة القبائل فكان مفاوضا كبيرا مع كبار زعمائها خاصة خليفة الأمير بن سالم. كما يعد من الجنرالات الذين رسموا خريطة جديدة للصحراء الجزائرية وفق معطيات تلك الفترة. قادمة إعادة قمع مقاومة منطقة القبائل بعدما سقطت زمالة الامير تحت يد الاحتلال. زيادة على ذلك كان دوماس مستشرفا وإثنوغرافيا، فالنص الذي بين أيدينا يبين اهتمامه البالغ بالقبائل والعروش والأعراف والأخلاق العربية والفرق بينها وبين التقاليد الامازيغية بمنطقة القبائل. كما يبين اهتماما بالغاً كذلك بالزوايا وحضور الأبعاد الدينية في منطقة التيطري وبنو عريب وبنو جعاد.

يعتقد الباحث والمؤرخ الفرنسي ميشيل لوفالوا أن دوماس تأثر كثيرا بأبحاث السينسيمونيين الفرنسيين، وعلى رأسهم إسماعيل أوربان، ولكن للأسف،

حسب لوفالوا، لم يشر دوماس إلى أوريان ولو مرة في كتبه على الرغم من القرابة الموجودة بينهما: "لقد استعملت الأعمال الأنثروبولوجية التي قام بها أوريان من طرف أوجان دوماس الذي كان رئيسه في إدارة الجزائر بين 1850م و1860م، حيث طبع عدة كتب في 1853م منها الأعراف والتقاليد في الجزائر، التل، منطقة القبائل، والصحراء، ولكن دون أن نجد ولو إشارة طفيفة إلى مساعده." (2)

عندما نطلع على محتوى الكتاب نجده يقترب كثيرا من التقارير التي كان يكتبها الجنرالات والرحالة في القرن التاسع عشر في إطار السياق الكولونيالي. إذ ساهمت هذه النصوص في رسم صورة الآخر بطريقة إسقاطية كان الغرض منها التعرف على الأهالي بغية الهيمنة عليهم، من جهة أخرى كان لابد من رفع التحدي السياسي والاجتماعي عن طريق التشجيع على النزول إلى هذه المستعمرات، فالاستعارة الكبرى **La grande métaphore** التي تحدث عنها كثيرا عالم الاجتماع الفرنسي ألكسي دوتوكفيل تبين بطريقة مباشرة الغرض من وراء ربط إرادة السرد بإرادة الهيمنة الإمبريالية.

يندرج، إذن، هذا النص ضمن استراتيجية تعريفية، تعرف بالأصلائي كي تنزع عنه الأسطورة **La démythification** التي جعلته مرهوبا ومرغوبا فيه من جهة، كما يندرج، من جهة ثانية، ضمن ما يمكن أن نطلق عليه مصطلح نزع الفوبيا من المستعمرات، فدوماس يروي بطريقة مقصودة، ومرات بطريقة تشويهية، الانتصارات والعقلانية الكبيرة التي امتازت بها الإدارة الفرنسية في التعامل مع المقاومة الجزائرية كي يقنع القراء في الميترربول بنجاحات الرسالة التحضيرية! ويبين بأن الأهالي في المستعمرات لا يشكلون هذا الخوف الاسطوري الذي يعود إلى عصر الحروب الصليبية في المخيال الأوروبي، فهم بفضل الترسانة العسكرية والتخطيطات العسكرية المعقنة والحلفاء واستغلال

الانتحارات القبلية وتراجع مقاومة الأمير عبد القادر وتواطؤ بعض القياد مع المؤسسة الإمبريالية في تراجع واندحار كبير.

يرصد هذا النص الملابس التي أجلت السيطرة على منطقة القبائل إلى الأربعينيات من القرن التاسع عشر، فعناد (حسب دوماس) وشهامة القبائل حالت دون الاقتراب منهم او محاولة تأليبهم على الأمير عبد القادر. بطل هذا العناد التاريخي هو خليفة الأمير بن سالم، شخصية تاريخية معروفة تنتمي قبليا إلى بني جعاد وهي قبيلة مفصلية بين أولاد سباعو والنتيطري وبني سليمان ومنطقة القبائل بداية من بوزغزا وزيريرية ودلس.

حاول دوماس مليا أن يبين الطريقة التي وظفها الاستعمار الفرنسي في صنع حاجز مادي ورمزي منيع يحول دون منطقة القبائل والأمير عبد القادر، فبينما كان هذا الأخير يراهن كثيرا على الحواضر الكبرى مثل: وهران وتلمسان والعاصمة والمدية انتقص نوعا ما من قيمة منطقة القبائل التي تفتح وتضمن كثيرا بوابة الشرق الجزائري، فجالها تفضي مباشرة إلى تونس قاطعة مدنا شرقية كبرى مثل: بجاية وقسنطينة وباتنة. فهم دوماس أن نقطة ضعف الامير تكمن في هذه المنطقة، لهذا رفع تقريرا إلى الماريشال والمحافظ بيجو كيلا يعزف عن التفكير في اكتساح هذه المنطقة بسبب صفارة الاستجداد التي أطلقها الدوق والأمير أوامال في الغرب الجزائري الذي كان يعرف آنذاك معارك طاحنة.

يسلط دوماس الضوء في هذا النص على الطريقة التي تم بها التحالف مع بعض خلفاء الأمير وهو بن محي الدين، مقتنعا بأن العرب إذا ما اعطيت لهم مزايا ولم ينتقص من قدرهم الاجتماعي فلا ضير من المساس بأرضهم وفرض الضرائب عليهم. لهذا وضع بن محي الدين خليفة للماريشال بيجو في منطقة سباعو، وهي منطقة استراتيجية تحول بين الغرب ومنطقة القبائل عن طريق النتيطري.

واستعمل بن محي الدين الطريقة نفسها التي يستعملها كل حاكم يستغل الانشقاقات القبيلة للسيطرة الكلية، يقول عنه دوماً: "لم يحبه بنو عريب، لقد كانوا يرومون خليفة من صلبهم، أما عن بني سليمان، فإذا كانوا مركز تودد بسبب حبهم الخالص، إلا أنه لم ينسوا أن صاحبهم بن محي الدين ساسهم بالحديد والنار حينما كان خليفة الأمير. أما عن بني جعاد، على الرغم من أنهم كانوا تحت سيطرة هذا الخليفة الجديد فإنهم لم ينسوا قط أن بن سالم منهم وما زالوا يكونون له المودة والمواودة. الكل كان يتمنى الفوضى مع رفض الزعيم الذي اقترحه فرنسا. لقد قرر بن محي الدين أن يتبع المنطق السياسي الصحيح. عزم على نسيان تظلماته الشخصية من أجل المنفعة العامة. ومثل بن سالم، راح بؤلب الزعماء بعضهم ضد بعض، وينقض على القبائل بنقاط ضعفها، باستنزاف كل مؤونتها ويربح في معسكره المتنتعين انطلاقاً من وجاهته كمرابط."⁽³⁾

يمتاز هذا النص بميزة جمالية تحتاج إلى التفكير في أسبابها والغرض من توظيفها. قبل التطرق لهذه الميزة لا بد من توضيح البعد الاستشراقي في هذا النص. لقد كرس إدوارد سعيد كتاب *الاستشراق* كي يفكك الطريقة التي بنى بواسطتها الخطاب الاستشراقي الشرق في المخيال الغربي. لم يكن الخطاب الأوروبي الذي طال الشرق محايداً ولم يتوخ الحذر من السقوط في تطابقية الاستشراق مع الشرق، فالشرق أكبر بكثير من هذا الخطاب الذي التبس بالذاتية وتخللته بعض النزعات الاستعمارية وبعض النزعات الفوقية التي ساهمت في بلورتها ظروف متشابهة وجد معقدة.

يقول إدوارد سعيد متحدثاً عن بدايات الخطاب الاستشراقي الذي خرج من حقبة التجارب الخاصة التأسيسية إلى الدوائر والمؤسسات: "وعلى هذا النحو انجبت حملة نابليون سلسلة كاملة من المولودات النصية، من كتاب شاتوبريان *الرحلة*، إلى كتاب لامارتين *رحلة إلى الشرق*، وكتاب فلوبيير *سلاامبو*، وضمن

الخط نفسه من التراث، كتاب لين مسالك المصريين المحدثين عاداتهم، وكتاب ريتشارد بيرتن مسرد شخصي لرحلة حج إلى المدينة ومكة. وما يربط هذه المؤلفات ليس خلفيتها الكامنة في الخرافة والتجربة الشرقيتين وحسب، بل هو أيضا اعتمادها المتفقه على الشرق بوصفه رحما منه انبثقت. وإذا كانت هذه المخلوقات قد انجلت في النهاية بما في ذلك من مفارقة ضدية، عن صورة زائفة مؤسلة إلى درجة عالية وتقليدات محكمة النسج، للصورة التي يمكن أن يتصور الشرق الفعلي الحي عليها، فإن ذلك لا ينتقص إطلاقا من قوة التصوير التخيلي لهذه المؤلفات أو من قوة المعرفة الأوروبية المتقنة للشرق والسيطرة عليها⁽⁴⁾

على الرغم من أن إدوارد سعيد في هذا النص ذكر فقط المستشرقين الأدياء إلا أنه يقصد كذلك كل كتابة قام بها غربي عن الشرق مهما كانت تطلعاته وتخصصه وميدان اهتمامه، فتحت طائفة المصطلح الذي وضعه في كتابه الاستشراق الاستشراق الرمزي/المخيالي تدرج عدة انماط من الكتابة تشترك كلها في إرادة التعرف على الآخر باحراز نوع جديد من الأسطورة بغية السيطرة والهيمنة.

دوماس يدخل من هذا الباب ضمن كوكبة من الكتاب الكبار الذي ساهموا في بلورة خطاب عن الشرق انطلاقا من وجهات نظر مشروطة تاريخيا وأطر مرجعية تناصية حددت المسار العام لهذا الخطاب. فهو يشبه كثيرا في كتاباته الجنرال الإنجليزي شرشل وليون روش وأوربان وأونفونتين.

زيادة على تدخل الخطاب الاستشراقي في رسم معالم نص دوماس يبقى أمر آخر ساعد كثيرا على تشكيل هذا النص بسبب الحفاوة التي أصبحت سائدة عند الكثير من الضباط، انطلاقا من تثبيت أحلام المغامرة والبطولة في الحاضرة المركزية، وهذا العامل يعد دافعا رومانسيا حظي به الجيش الفرنسي في شمال

إفريقيا إذ خلق أفق انتظار واسع جريا وراء الغرائبي L'exotique ومجلات الأحداث.

جاء في كتاب راوول جيراردي الحامل للعنوان التالي فكرة الاستعمار في فرنسا: "هنالك واقعة جديدة مهمة في التاريخ العسكري الفرنسي برزت مع ظهور نمط اجتماعي مثله الضابط الاستعماري. وهي واقعة مهمة كذلك برزت في مستوى تاريخ الذهنيات، حيث إلى عهد قريب كانت العوام تخطط كثيرا بين ما يمكن أن نسميه الضابط الاستعماري والضابط العسكري. يظهر الضابط الاستعماري في ملهاة الآداب والمسلسلات الشعبية وأدب الأطفال حاملا دائما لبزته. عموما، يمكن أن نقر بأن صورة المحارب المغامر هي التي جعلت في نظر الأغلبية المغامرة الإستعمارية متمثلة ومقبولة."⁽⁵⁾

يمكن ان نفهم هذا الدور الإجماعي والبطولي الجديد الذي حظي به الضابط الكولونيالي كنتاج تلاحق ثقافي وإمبريالي، فالمؤسسة الاستعمارية تحتاج كثيرا إلى بروباغوندا كي تشجع أولا الفرنسيين على النزول إلى المستعمرات وثانيا كي تقوم بعملية تعبئة ضباطية واسعة النطاق في مشروعها الاكتساحي الذي يندرج ضمن الصراع على المستعمرات بالمناكب. لا ننسى أنه زيادة على الدافع الاقتصادي والتناقضات الاجتماعية الداخلية الحاتة على التوسع الجغرافي كان عامل التنافس مع المؤسسات الاستعمارية الأخرى خاصة بريطانيا عاملا محفزا لتعبئة وتسخير أكبر الطاقات بغية ضم شمال إفريقيا إلى الحاضرة، خاصة بعد الفشل الذي عاناه نابليون بوناپرت في مصر.

حاول إدوارد سعيد أن يدافع مليا عن تقنية أحادية الصوت La monophonie في الخطاب الاستشراقي، فكشك هاتم عند فلوبيير: "مسحورة باكتفائها الذاتي، بلامبالاتها العاطفية وكذلك بما تسمح له وهي تستلقي إلى جانبه

بالتفكير به، وفي كونها عرضاً لأنوثة باهرة لكنها غير معبرة لغوياً، أكثر منها
 امرأة، فإن كشك هي النموذج البدني لشخصيتي فلوبيير سالومبو وسالومي⁽⁶⁾
 يرمي إدوارد سعيد من وراء تشبته بأحادية صوت الآخر في أدب الرحلات
 والتقارير الاستشرافية إلى البرهنة على النزعة المركزية المتعالية في الفكر الغربي
 كما يرمي إلى تأكيد نزعة موضوعية هذا الآخر كي يكون موضوع دراسة يمكن
 الهيمنة عليه. فسلب صوت الآخر والتكلم في مكانه هو إفراغ لإنسانيته ومحاولة
 لاشعورية لموضعتة l'objectivisé وتجميده.

في نص دوماس نجد خرقاً لهذه القاعدة وهو ما يدعونا للتساؤل من جديد
 عن استراتيجيات الموضعة **Les stratégies d'objectivation**. لم يعتمد دوماس
 تقنية الكلام الأحادي لسارده، بل راح يعطي في كثير من المرات الكلام لشخصياته
 وفق تقنية النصوص المتخللة عن طريق الرسائل والخطابات التي تكلم عنها كثيراً
 الناقد الروسي ميخائيل باختين. هل يعد هذا النوع من توزيع الكلام
 الديموقراطي/الحواري نوعاً من أنواع البوليفونية أو تعددية الأصوات
? La polyphonie

تراوحت عملية توزيع الأصوات في نص دوماس بين الشخصيات
 الأوروبية والشخصيات الجزائرية. فخطاب ييجو إلى زعماء منطقة التيطري
 وسباعو ذكره دوماس بحذافيره وكأن الأمر متعلق بتقرير إعلامي في صحيفة ما،
 حيث يذكر فيه بمزايا ومناقب الجنرال الذي استقبل زعماء هذه القبائل بالهدايا
 والبرانييس.

"لقد أتيتم إلينا أحراراً... أنت أحرار أن تقبلوا أو ترفضوا الالتزامات التي
 سنتكبدونها، إذا رفضتم تحملها إذا شعرتكم أنكم غير قادرين على تحملها فالوقت
 مناسب للامتناع والعزوف عنها"⁽⁷⁾

صور دوماس خطاب بيجو تصويرا كنائسيا، فبيجو الذي فرض على منطقة التيطري منطق القوة والردع أصبح رحيمًا حاملًا لرسالة إنجيلية تقدر التسامح والسلام مع العدو في حين سجد أن دوماس، على الرغم من أنه سيتترك الكلام على حذافيره لبن سالم عدوه اللوذ من الصفحة 120 إلى غاية 131: "إنه لمن العار أن تظنوا أنفسكم مسلمين أو مؤمنين أو تعرفون عظمة الله وأنتم تطلبون الفضيلة من الكفار وتعيشون تحت أوامرهم... ماذا تقولون في المسلمين الذين يقطنون مع الكفار ويرضخون لأوامرهم..."⁽⁸⁾ إلا أنه سيضعه في سياق سلبي.

لقد لعب السياق في هذا النص دورا بارزا في تحديد منطق قيمي قائم على محور الخير ومحور الشر، ولعل أهم بناء سيميولوجي استعان به دوماس في توجيهه للسياق الارتكاز على صور نمطية عن الأهالي ومحاولة رسم الآخر بإكليسيهات الحيونة L'animalisation والتخلف الحضاري؛ يقول دوماس مثلا بعدما فرض بيجو الزعيم بن محي الدين بالقوة على الأهالي الناقمين: "...حينها يمر مشهد خاص بالأخلاق العربية. بمجرد أن انتهى الجنرال بيجو من كلامه، بقوته المعهودة، طلب المتشددون الذين طالبوا منذ قليل برأس بن محي الدين أن يقبلوا رجله ويده..."⁽⁹⁾

إن البوليفونية التي نتكلم عنها لا تعكس انفتاحا فكريا بدأ يعترف بالآخر ويدرجه ضمن مخيلته النمطية المليئة بالقبليات والمسبقات، فدوماس يشكل حالة خاصة نسبيا في محاولة موضعة الآخر بطريقة أقرب إلى تقنيات الرصد الجغرافي (لانسى أن دوماس جغرف جزأ من الصحراء الجزائرية) ويشكل حالة تقبل للآخر الأصلي انطلاقا من التأثير الذي حصل عليه من أفكار إسماعيل أوربان والكثير من السينسيمونيين الفرنسيين، الذين على الرغم من عدم تنديدهم بالاستعمار إلا أنهم

دعوا إلى الاحترام الثقافي والتبادل الحضاري بين الأمتين ضمن ما سيعرف فيما بعد، في عهد نابليون الثالث، بالمملكة العربية Le Royaume Arabe . يبقى أن بوليفونية دوماس في السياق الكولونيالي تساعد بطريقة مباشرة موضعة الآخر L'objectivation de l'Autre بطريقة أقرب إلى العلمية، فالطابع التقريري للنص والوضع الخاص لوظيفة دوماس يجعلانه يتوخى الموضوعية وإبعاد الذاتية إلى أقصى درجة. فصوت الآخر الذي برز في هذا النص يعكس حالة استنطاق رمزي واستبطان تحليلي لمعرفة سيكولوجية الآخر كي تتم عملية استقراغه من محتواه وحبسه في إكليسيهات مقولبة ونفيه على الإطلاق. ولعل غياب صوت الأصلائي في نصوص ألبير كامو بعد قرن تقريبا يعد بمثابة نتاج تاريخي لهذا التطهير الانطولوجي.

في الأخير لا يمكن الاعتقاد بوجود بوليفونية تختزل إلى حدودها الشكلية المادية فقط، فبوليفونية نص دوماس يتدخل فيها دائما السياق الكولونيالي لتوجيه عملية القراءة لهذا نجد فيها أن الأبعاد الحوارية التي تعد جوهر النص السردي البوليفوني غائبة بسبب الأبعاد الكولونيالية التي تموضع الآخر (تجعله موضوع دراسة) من أجل تجميده وتسييجه.

يقول باختين عن البوليفونية الحوارية ما يلي: "إن الرواية البوليفونية ذات طابع حوارى على نطاق واسع، وبين جميع عناصر البنية الروائية توجد دائما علاقات حوارية أي أن هذه العناصر جرى وضع بعضها في مواجهة البعض الآخر مثلما يحدث عند المزج بين مختلف الألحان في عمل موسيقي."⁽¹⁰⁾

إن نص دوماس للأسف يفتقر إلى الحوارية لأنه يفتقر إلى الموسيقى !

الهوامش:

- 1-آنيا لومبا: في نظرية الاستعمار وما بعد الاستعمار، تر/ محمد عبد الغني غنوم، دار الحوار، سوريا، ط1، 2007 ص ص: 31/30.
- 2 -Michel Levallois, Ismayl Urbain, une autre conquete de l'Algerie, éd, Maisonneuve et Larose 2001, Paris p : 631.
- 3 -Eugène Daumas, la conquete de la Kabylie, éd, Belles lettres, 2012, p :106
- 4- إدوارد سعيد: الاستشراق، تر/ كمال أبودييب، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، ط 6، 2003، ص 113.
- 5- Raoul Girardet, L'idée coloniale en France, 2d, Hachette, France, 1978, pp : 34/35
- 6- إدوارد سعيد: مرجع سابق، ص 200.
- 7 -Eugène Daumas, op,cit, p102.
- 8 -Ibid,. De la page 120-131.
- 9 -Ibid,. p : 97.
- 10-ميخائيل باختين، شعرية دوفنويسكي، تر/ جميل نصيف التكريتي، طبعة توبفال، 1986، بالاشتراك مع دار الثقافة ببغداد، ص 59.